هذا العام

لم نزرع الخضار هذا العام
كما زرعنا الارض قبل عام ..
جباهنا تحب نور الشمس
(من قبل أن تحبه أكفنا)
لم نملأ البيوت سوسنا
من قبل أن يجيء يوم العرس
ـ تحمّمي بأدمع السناء
قد مرغوا خيولهم في الماء
تزيّني بالشوك يا حبيبتي
على صخور المنحنى السماء !

***

لم نصطد الاسماك هذا العام
لم نملأ الضفاف بالاصداف
بالريش والاسفنج
قد أبحرت بنا
مراكب الضنى
ولم تعد من الرؤى البعاد
صيادنا يحب أن يروح
مثلما يحب أن يصطاد ...

***

يا عوسج الحقول دفّيء الحقول
وخبّيء البنفسج الوثير في التلول
وفجّر الدماء من أكفنا
ـ لم نعرف البيوت هذا العام
الا قليلا .. يا لهذا العام ...

الياس لحود

كان تشوانغ ـ تسو هو الذي حلم بأنه فراشة ، او ان فراشة تحلم بأنها تشوانغ ـ تسو » . ومقطع آخر لمن لم يتأثر بعد بهذا الجو المسحور : « المعلم كونفوشيوس يحلم ، وانت تحلم ايضا . وعندما اقول انكما تحلمان ، أكون حالما أنا الآخر » . أجل ، هذا على وجه التقريب ، ما يريد ان يقنعنا البعض به . واما بالنسبة لي شخصيا ، فلم تشرق في نفسي بعد انوار ذلك اليقين . وعلى اي حال ، اذا كان الاديب (لا يعرف) حقا ، فلماذا يثور اذا ما نسبت اليه بعض التفسيرات الاجتماعية او غير الاجتماعية ؟ فالمفروض انه لا يعرف ، وقد تكون تلك التفسيرات بالتالي صحيحة ! كلا ، ان في تلك الصورة المضخمة ، مغالاة ، أي مغالاة .

ان الادب يحدث بالضرورة تأثيراً في المجتمع ، من خلال الافراد الذين يتوجه بالتأثير اليهم . واذا كان الامر كذلك ، فهل الادب الثوري ممكن ؟ اجل ، ولم لا ؟ ان الثورة هي تجاوز الواقع من خلال الواقع . انها سير نحو المستقبل . ويجب على الادب بالتالي ان يتجه الى المستقبل . ولكن ذلك لا يعني ان يفتعل الاحداث والشخصيات المنتصرة المشرقة ، بل يعني ان يرجع الى القوى النامية في المجتمع والتي وهب ذلك المستقبل لها . ولو كان لنا ان نضرب مثلا فسوف نقول بأن الاديب الثوري هو الذي يشيح عن النبات الذي اورق ، وازهر ، واثمر، ثم مال الى الذبول ، ليتجه بنظره الى البذرة التي ما تزال في جوف الارض ، تنتظر الربيع لتتفتح . وليس عمله ان يخلق لها الربيع الذي ـ ولنقبل بذلك جدلا ـ قد لا يأتي قط . يكفيه ان يحكي لنا صراع تلك البذرة ، ويعي وينشر في وعي الآخرين ، حقيقة وجود تلك البذرة. واما اخطر ما يواجه الاديب في هذا المجال فهو : البرهان . اذ غالبا ما يتحول الاديب الى عالم يريد ان « يبرهن » بطريقة مؤثرة على نظرية ما . ولنأخذ الرواية على سبيل المثال . فهي كما قلنا خلق بالدرجة الاولى . واذا كان الاديب لا يعرف كيف يخلق ، فليس له الا ان يبثنا عواطفه الانسانية المشكورة في مقالة سياسية ، او اي حديث وجداني لاهب . ان ايمانه بالثورة يمده بالشخصيات وبالاحداث الخام ،وعليه ان يعيد خلق وتشكيل هذه الشخصيات والاحداث خلقا ادبيا . ولقد فرت بعض الشخصيات الروائية من الكتب ، وراحت تعيش معنا حياتنا ، لا كرموز وخيالات ، بل كمخلوقات حقيقية ، حية . فهذا « دون كيشوت » بهيكله النحيل وقضيته الخاسرة ، قد اصبح شخصية تاريخية تماثل في الصدق والواقعية شخصية سرفانتس ذاته. وعطيل، وماكبث ، وتارتوف ، وعوليس ، وبروميثيوس ، وتنتالوس ، الخ. بل وان الشخصية الروائية تتغلب احيانا على الشخصية الحقيقة،وتطمس معالمها . ومثالنا على ذلك « عنترة » في القصص الشعبي . فلقد غدا اصدق واكثر صميمية من عنترة كما عرف في التاريخ . لا بل اشتقت من اسمه النعوت والافعال ، وصرنا نقول : تعنتر ، وعنتريات .

ان الرواية تعبير مشخص ، وليست تشخيصا على حدة ، او تعبيرا على حدة . وعلى الاديب ان يعرف كيف يحتفظ بالتوازن بين التعبير والتشخيص ليكون ما ينتجه ادبا حقيقيا . واننا ، للاسف الشديد ، نشاهد في الانتاج الغزير هذه الايام ، بعد وقوع النكسة ، تفاوتا عظيما بين الكم والكيف ، في الاعمال الادبية التي بدأت تتراكم دون قيمة حقيقية ، بشكل يدعو للرثاء . والخطأ الاساسي في ذلك ، ودع عنك حديث الافتقار الى الموهبة المبدعة ، والتجربة الغنية ، والثقافة الراسخة ، ان جميع من يكتبون يريدون قبل كل شيء ان « يبرهنوا » لنا ، بأن المقاومين ابطال ، وبأن المقاومة ضرورية ، وبأنه لا حل الا حرب التحرير الشعبية ، وغير ذلك من الامور ، قاذفين بكل المتطلبات الاساسية للفن عرض الحائط . ونحن نسأل : ما يمنع كل اولئك من التعبير عن كل ما يجيش في نفوسهم ، في مقالات صحفية واذاعية ؟ فربما اقنعونا عندها بقوة اكبر بما يريدون ان يبرهنوا عليه.وليس لنا الا ان نعيد على مسمعهم قولة جيد : « ليست العواطف الجميلة التي تصنع الادب» .

خلاصة :

وبعد ، ليست هذه الدراسة السريعة كما اردتها ان تكون غير دعوة للنقاش ، اكثر منها اثباتا لحقائق متصلبة . ولا شك بانها قد طبعت بالضرورة ، لضيق المجال ، بالتعميم والتكثيف ، ولكنها مع ذلك حاولت توضيح النقاط الاساسية ، في موضوع الادب الشائك ، وان لم تكن نهائية ، لا ولا كلية . وهل كنا نستطيع قط ، ان نخلق ما هو نهائي وكلي ؟

سلمان حرفوش